عرب كوبنهاجن... دجاجة بلا رأس!

خليل فاضل

المشهد الأول

ـ «لماذا خاننا حصادك، أيها المنجل القديم»[1].

ـ لم أكن منجلاً. كنت شكل المنجل فقط، منجل بلاستيك مطلي بلون الحديد القديم، الحديد الصدىء، لا أعرف حصاداً يخون الآخرين، حصاديلي، أدركه، أنتفع به، وأحافظ عليه. أكرر لم أكن منجلاً قط، ولم أحلم أن أكون واحداً.

لم أكذب ولم أخن. أنت الذي سقطت في الفخ، تخيلت أنني منجل وتوقعت حصاداً. ملأت الدنيا ضجيجاً وصراخاً، وقولاً فصيحاً:

«لماذا خاننا حصادك أيها المنجل القديم»

أنت المتفرج والضحية، أنت الصوت والصدى، صدقتأن لعبة طفل على شكل منجل هي منجل، أنا المثقف البرىء، وأنت المتفرج الضحية، سلاماً يا أخي، سلاماًيا ابن العم...

المشهد الثاني

ـ هل رأيت ملصق الفيلم الذي أثار ضجة في باريس؟!

إنه لرجل عارٍ تغطي عورته مزقةٌ من علم الولايات المتحدة، وفي الخلفية نصف صورة لامرأة شبه عارية!

ـ ولم أثار الملصق ضجة؟!

ـ لأسباب شتى، أهمها الإيحاء من وجهة نظرنا نحن، فما أروع أن يغطي العورة علم أمريكا. يحميها، يحرسها، ويصون شرفها.

ـ كيف ومفكر روسي قد قال: لا مجال للحديث عن ثقافة أمريكية، كيف تكون هناك ثقافة لشعب لم يكتمل بناء شخصيته، شعب لم يكمل القرونالثلاثة. لا حضارة ولا ثقافة، له خصائص أخرى أهمها الاستخدام الغبي للقوة، والتصور بأنه مالك النظام العالمي الجديد.

ـ قال نعوم تشومسكي أن النظام العالمي الجديد لا يعني إلا أن يلعق الجميع أحذيتنا، وهو يقصدبالطبع أحذية رجال الإدارة الأمريكية.

ـ لمَ الفزع من لقاء عرب كوبنهاجن بحفنة إسرائيليين، أكملوا بالكاد نصف قرن، أي حفنة مستوطنات ومستوطنين، قوة إلكترونية وعسكرية، عنجهية لا توصف، عصبية وتعصب!

ـ ليس هناك فزع، هناك رد فعل، الطلقة المذعورة لا تصيب أحداً، تحدث ضجة، تحدث خوفاً يُطير العصافير من على أغصان الشجر، تفيق حراس الوطن، تنبه الضمير، تسلخ الجلد، وتعرّي ورقة التوت الأمريكية، فتظهر العورة الثقافية قبل التناسلية.

ـ حكت لي طبيبة عراقية حكاية أشبه بالنكتة، بينما هي فيالواقع مأساة، تراجيديا يعني، تقول إن رجلاً يدعى (عرب) تزوج من امرأة تسمى(طنبورة)، كانت المرأة صمّاء بكماء، ولمّا كان يريد اللقاء بها جنسياً، كان يفرش الملاءة على الأرض علامة على الرغبة والدعوة، فما كان من (طنبورة) إلا أن تعلمت أن تنام على ظهرها وتستعد للقاء زوجها. ذات يوم شبت النار في بيت (عرب) و (طنبورة)، جاء (عرب) على عجل يحاول لمَ أشياءه الثمينة، فرش الملاءة أمام البيت المحروق ليرمي عليها ما خفّ وزنه وغلا ثمنه، فما كان إلاّ أن اضطجعت (طنبورة) على الملاءة واستعدت للقاء الجنسي، مرّ الناس ضاحكين وقالوا: (شوف عرب وين، وطنبورة وين؟!).

ـ هل هي حالة من الإنكار اللاواعي، أم الجهل، أم الاستسلام للأمر الواقع؟

ـ إنَّ جذور المعاناة تكمن في توحد الإنسان مع ذاته الزائفة، غير عابىء بذاته الحقة. إنّ مسألة التوحد تلك ما هي إلا جزء من مسألة النضج، والبعض يرى الشعب على أنه قاصر، أو غبي، أصم أو أبكم!

ـ نقصد أنَّ أناساً مثل عرب كوبنهاجن قد أخطأوا الطريق والحساب، عمداً أو عن غير عمد، حينما أهملوا الذات الحقة؟!

ـ إنه البحث المضني داخل الفراغ الداخلي، الخواء البحث، إنهُ أمرٌ يبدو مثل البصلة.

ـ البصلة؟!

ـ نعم.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ البصلة مكونة من طبقات منظمة لكل منها طبيعة وقدرة واستقلال، وهي تختلف باختلاف المسافة وبعدها عن القلب، المركز، المنتصف.

ـ والبصلة أيضاً ذات رائحة نفاذة، خاصة إذا تقشرت، وانكشف قلبها!

المشهد الثالث

ـ حين سُئلَ أحد نواب (الليكود)[2]: ألا يقول نشيدكم أنْ لنهر الأردن ضفتين: غربية وشرقية أيضاً؟ قال: يحق لي أن أغني. فهل يحق للفلسطيني أن يغني وطنه، كما يحق للإسرائيلي أن يغني توسعه؟...

ـ باح بن جُوريون لصديقه ناحوم جولدمان، في ساعة متأخرة من ليالي (سديه بوكر) بقلقه على المستقبل. وقال (لماذايعقد العرب صلحاً معنا؟ فنحن الذين أخذنا أرضهم).

ـ هل هي مجرد ورقة التوت المزدانة بالعلم الأمريكي هي السبب؟!

ـ ربما؟

ـ يقول محمود درويش: لا يستطيع الإسرائيلي أن يقيم في الشرقالأوسط، ما لم يكن جزءاً من عناصر تكوين الشرق. إنّ أزمته الثقافية لا تتجلى فقط في أنه لا يعرف الآخر، بل تتجلى أيضاً في أنه لا يعرف ذاته في مكان الآخر. فالإسرائيلي الغريب لا يدرك، هناك، أنه لم يعد لاجئاً. بل يدرك أنه صار لاجئاً. ها هو الكردي اليهودي يعلن أنه لاجيء في المجتمع الإسرائيلي.

ـ هل هذا معناه أن «عرب كوبنهاجن «سيساعدون الإسرائيلي على تخطي محنته، وعلى تجاوز أزمته؟!

ـ ربما وربما يساعدهم هو على تجاوز أزمتهم هم، فهم ضائعون،، تائهون داخل ذواتهم، وصاروا منبوذين من مجتمعاتهم الثقافية والشعبية.

المشهد الرابع

ـ يقول لطفي الخولي، وهو «طليعة» عرب كوبنهاجن إن الحجة في لقاء ديفيد قمحي وهو رجل موساد سابق مردود عليها لأن بوش رئيس النظام العالمي الجديد السابق كان رئيساً أو وكيلاً للجهاز الجهنمي المعروف بالسي آي ايه CIA.

بوش رئيس أمريكي فخم، دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فهو فلا فخر الرئيس الوحيد الذيضربت على عتبة قدميه القومية العربية في مقتل.

هل تعني أن هناك فرقاً بين رئيس كانرجل مخابرات، وآخر كان معتقلاً سياسياً مثل مانديلا، وآخر يبكي في جنازة رابين، وآخر كان طياراً مقاتلاً، وآخر يكتب للمسرح.

ـ كل شعب يستحق من يحكمه، وَلْتَحْيَ دولة الحقراء.

ـ إلى أين يذهب الشهداء؟

ـ هكذا تساءل د. فيصل درّاج.

ـ نعم، هكذا قال: يذهب الشهيد إلى لا مكان، بمعنى مزدوج: فهو لم يصل إلى الغرض الذي كان يعتقد أنه واصل إليه، ولم يستقر في أحضان مكتبة تعرف اسمه وتعرّف بأفعاله. فهو الملصق الذي كان، وهو الملصق الذي غطى الجدار يوماً وبددته دورة الفصول.

ـ ذكرتني مرة أخرى بالملصق، أعني ملصق الرجل العاري وتغطيه ورقة توت، مزقة من علم أمريكي زاهٍ.

ـ نعم، وأذكرك مرة أخرى بحكاية عن دجاجة بلا رأس.

ـ كيف؟

ـ دجاجة تمشي، تنظر إلى موضع قدميها دون مخ، ودون بصر، ودون بصيرة.

ـ هل هي دجاجة أصابتها حمى شوكيّة، التهاب سحائيّ؟

ـ لا، هي دجاجة واعية، براجماتية، تدرك مصلحتها بغباء، تمشي، وترقص، تظهر في التفزيون، وتلعب في السيرك، تبيض بيضاً نتناً عقيماً، لا تتألم، لا تضاجع الديكة التي تصيح عند أذان الفجر، دجاجة بلا لون، لونها كالح وعيناها غائرتان، منقارها ثلم، جناحاها مشوّهان.

ـ كيف يكون تعذيب الأبطال؟

ـ يكون بأن يفجعوا في المثل الأعلى.

ـ والمثل الأعلى، الذي كان، هل كان بطلاً؟!

ـ ليسوا أبطال، هم قطيع عميان يفتش في الفراغ عن بطولة،

والأرض ملأى بالأبطال حولهم

ملأى ولكن باللصوص[3].

لصوص، من نوعية الغراب الذي سرق الصابونة، طار وارتفع بها، لم يفعل بها شيئاً، لم يأكلها، ولم يستحم بها، طار وخطفها، سرقها وسرق عمره وتاريخه ضحك الناس عليه!

بريطانيا

الهوامش

(1) عنوان قصيدة جديدة لأدونيس (الحياة 1997/2/20).

(2) **عابرون في كلام عابر**، محمود درويش، دار العودة، ص 64.

(3) تقديم لويس عوض لكتاب **بروميثيوس طليقاً**.

(4) **لزوم ما يلزم** (نجيب سرور).